سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ (٤٨)

عوائق في طلب العلم

لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

الشيخ لم يراجع التفريغ

عوائق

في طلب العلم

00966558883286
YouTube/alshuwayer9
alshuwayer9

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:
tafreeghalshuwayer@gmail.com

سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ

(٤٨)

عوائق

في طلب العلم

لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمـاً كثيراً إلى يوم الدين.

ثُمَّ أمَّا بعدُ:

فهذا هو اللقاء الثاني في هذا المسجد، وقد كان اللقاء السابع في شهر صفر من عام ست وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، **أي:** قريبـاً من نحو عشر سنين، فأسأل الله عز وجل لنا جميعـاً حُسن الختام، وأن يجعل أيامنا مطايًا لأعمالنا الصالحة، وأسأله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا وأن يتجاوز عن خطئنا وزللنا فيما مضى من أيامنا.

أيها الإخوة! إنَّ حديثنا اليوم حديثٌ عُنْون له بـ «**مِنْ عَوَائِقِ طَلَبِ الْعِلْمِ**»، و(مِن) – كما نعلم– تبعيضية، إذ سيكون حديثنا عن بعض العوائق دون كلها، لا يمكن للمرء أن يتكلم عن كل الأمور وأن يستوعبها في هذا الوقت القصير الذي يكون بين العشاءين.

❁ **والأمر الثاني**: أن العنوان اسمه: (من عوائق طلب العلم)، **والعوائق** جمع عائق، **وهو**: كل أمر يمنع المرء من طلب العلم.

وهذه العوائق قد تكون مانعة من تحصيل العلم، وقد تكون مانعة من الاستفادة من العلم الذي يتحصله المرء.

إذن: فالعوائق كثيرة، والعوائق قد تكون تمنع المرء من تحصيل العلم بالكلية، فلا يسمعه ولا يقرؤه ولا ينظر فيه، وقد تكون تلك العوائق عوائق متعلقة بعدم الانتفاع بما يقرأ وعدم الانتفاع بما يسمع وبما يحفظ، وبغير ذلك من الأمور التي يتحصل عليها من العلم.

من عوائق العلم - أيها الإخوة - الشـيء الكثير كما ذكرنا قبل قليل، «والمرء إما أن يكون طالبًا لعلمٍ، وإما أن يكون قانعًا بجهل»، كما قال ذلك الخليفة العباسـي المشـهور المأمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المرء بين أن يكون طالبًا لعلم أو قانعًا بجهل، فلا يقول المرء أنني لست طالب علم من باب التواضـع، فإنَّ هذه الكلمة هي في الحقيقة مذمَّة لك؛ لأنه دليلٌ على أنك قانعٌ بجهلك، راضٍ به، راغبٌ فيه، ولذلك لا بد على المرء أن يُعنى بطلب العلم.

وطلب العلم يكون للمرء من أول حياته إلى منتهاه، ليس خاصـًا بسِـن ولا بجنس ولا بمن كان ذلك تخصصه أو تصدر لتدريس أو لغيره، بل لابد للمرء أن يتعلم قدر استطاعته.

والحديث في فضـل العلم عظيم وكثير وجليل، ولا بد وأن كل واحد منا يحفظ حديثًا على الأقل في فضـل العلم وأهله، وكذلك ضـده بضـدِّه وهو الجهل، فإن الجهل حقير وذميم، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه يكفي في الجهل في التنقيص من قدره وقدر أهله: أنه ما من أحد يرضى أن يُنسب إلى الجهل، كُلٌّ يريد أن ينتسب للعلم أو يقول أنا لست عالمـًا لكني لسـت جاهلاً، فيجعل نفسـه في درجة بين هاتين الدرجتين، ولكن كما قال المأمون وغيره: الرجل بين طالبٍ لعلم أو قانعًا بجهل.

ولذلك سنذكر بعضـًا من العوائق التي تمنع كثيراً من الناس من طلب العلم، وسنشير لبعضها إشارة وتنبيهًا عليها بما يسمح الوقت.

۞ **أول هذه الأمور - أيها الإخوة - التي تكون من عوائق العلم العظيمة:** كثيرة مشـاغل الدنيا، فإن المرء إذا شُـغِل بأشـغال الدنيا من أعمالٍ ووظائف وزوج وولدٍ وغير ذلك من الأمور فإنه حينئذٍ يكون هذا الشـغل مانعـًا وعائقـًا له من طلب العلم، إذ سـيأخذ

من وقته شـيئًا كثيراً، ويسـتغرق من عمره وحياته ويومه أوقاتًا وسـاعات متعددة، فيكون ذلك مانعـًا من تحصيله العلم، ومن قراءته وطلبه في ذلك اليوم.

ولذلك جاء عن أمير المؤمنين أبي حفصٍ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «**تفقهوا قبل أن تَسُودُوا**»، وجاء ضبطها: «**قبل أن تُسوَّدوا**»، والضبطان صحيحان كما قال السخاوي في المقاصد الحسنة.

(**قبل أن تَسُودُوا**) **أي**: بأنفسكم، و(**تُسوَّدوا**) بفعل غيركم، فالمرء لا بد أن يأتيه شغلٌ، إما أن يكون شغلٌ لمصلحة نفسه فيسود في نفسه، وإما أن يُسوَّد من غيره فيأتيه شغلٌ من غيره، والمرء كلما زاد في عمره كلما كثرت أشغاله.

ولذلك لما رُوي هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فسَّره بعض أهل العلم قال: (السؤدد يكون بالزواج والولد)، فمثل هذه الأمور مما يُشغِل المرء ومما يمنعه من كثيرٍ من الأمور ومنها طلب العلم ولا شك.

ولـذلـك قيـل في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبـة:٢٨]، قـال بعض أهـل العلم: إن الأفضل لطالب العلم ألا ينشغل بالعيال، حتى قال الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ: «إن طالب العلم يلزمه ألا يتزوج إلا واحدة لكي لا ينشغل بولده عن العلم، ولا ينشغل بزوجه الثاني والثالث عن العلم، وهكذا».

فلذلك طلب العلم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة:٢٨]، فخوف العيلة وهو كثرة الولد يكون سـببـًا للانشـغال بالسـعي في الرزق وبالسـعي في اسـتصـلاح حالهم، ونحو ذلك من الأمور.

إذن: فقضية أشغال الدنيا هي كثيرة ولا شك، والمرء كيف يمكنه أن يتخفف من هذا العائق أو يمكنه أن يوائم بينه وبين العلم؟

❏ **نقول: إن العلم مع وجود هذا العائق يتحقق بأمور:**

❃ **الأمر الأول:** أن يستغل المرء فراغه قبل شغله، وحداثة سِنِّه قبل كِبَرها، وفراغه قبل ارتباطه، وهكذا من الأمور، فيستفيد المرء في أول حياته بطلب العلم، ولذلك من شُغِل بالعمل في أول حياته وفي أول سِنِّه وفي صِغر عمره فإنه - بأمر الله عَزَّوَجَلَّ - حَرِيٌّ أن يستمر عليه بعد ذلك.

وقد ذكر الجلال السيوطي في مقدمة «الأشباه والنظائر» رداً على بعض الناس، قال: «وليس من طلب العلم في صغره كمن طلبه في كِبَره، إذ الكِبَر فيه الشغل وانشغال الذهن»، ولذلك فإن أول سببٍ يكون في دفع هذا العائق - وهو دفع عائق الأشغال - أن المرء يعتاد على العلم في صغره، يبدأ يعتاد من صغره على العلم، فيكون هذا العلم شيئًا من أمور حياته، هذا الأمر الأول.

❃ **الأمر الثاني:** أن يحرص المرء غاية الحرص على أن يجعل له حظًّا من العلم لا يتركه أبداً، وحزبًا يقرؤه من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن العلم مطلقًا، لا يترك هذا مُطلقًا، ولذلك جاء عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تجعل لها حزبًا من القرآن، فإذا أرادت أن تنام ولم تقرأ ذلك الحزب ماذا فعلت؟ أَخَّرت نومها لحين تقرأ حزبها.

وقد بيَّن أهل العلم أن المرء يُكرَه له قال ابن أبي يعلى في كتاب «التمام»: باتفاق رواية

واحدة «أنه يُكره للمرء أن تمر عليه أربعون ليلة ولا يختم القرآن كاملاً». باتفاق.

فالمرء يقرأ القرآن ويختمه ولو في أربعين ليلة مرة، وهذا هو الحد الأدنى الذي يجعله له في القرآن، ولا شك أن أعظم العلم إنما هو ما كان من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والانشغال به من أعظم العلم ولا شك.

إذن الأمر الثاني: أن يجعل المرء له حزباً من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومن سائر العلم.

ومن طرائق بعض أهل العلم في جَعْل حزبٍ لهم في العلم: أن بعضهم كان يقول - وهذه ذكرها الشيخ علي الطنطاوي في بعض كتبه -: أنا أخذت على نفسي عهداً في بعض سِنِيِّ عمري أن أقرأ في كل يوم مائة صفحة، لا بد أن أقرأ مائة صفحة يومياً لكي أعتاد، فإذا شُغِلت جعلت أيَّ كتاب بحيث أنني أضع هذا الحد والحزب الذي أخذته على نفسي في القراءة.

إذن: هذا المثال الثاني.

❁ **من الأمثلة أيضاً**: معلوم أن كثيراً من أهل العلم لا يقطع الدرس مطلقاً، كثير من الناس يحضر في الدرس سنة وسنتين وثلاثاً ثم يقطعه بعد ذلك: إما بشغله، أو لظنه أنه قد اكتفى، وغير ذلك، وهذا غير صحيح، فإياك إياك وقطع الدرس والحضور على المشايخ، ولذلك كان بعض مشايخنا إلى أن مات وعمره تسعين وهو يحضر عند مشايخه.

الشيخ عبد العزيز بن باز كان يحضره عنده ناس في الثمانين يقرؤون، وفي التسعين أو نحو التسعين وهم أقل منه بسنتين أو ثلاث وبعضهم كان أكبر منه ومات في حياته، فلذلك حضور الدرس مهم جداً، وعدم الانقطاع عنه، ولا يقول المرء أنني قد اكتفيت، وأنني

أصبحت أعلم من فلان وفلان، أو أني نلت من الشهادات كذا وكذا فأقطع الدرس، فهذا هو من أعظم العوائق في عدم الاستمرار والانشغال بالأشغال عن العلم.

إذن: العائق الأول عندنا وهو كثرة الأشغال، ولا شك أن كثرة الأشغال عائق، وذكرنا بعض الأسباب التي تكون دافعة لهذا العائق.

۞ ومن الأسباب - أيضاً - التي تكون دافعة لهذا العائق: أن يحرص المرء على تنظيم وقته وعلى ترتيبه، وأن يجعل له يومًا مثلما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يجعل له يومًا للدرس وهو يوم الأربعاء، فيجعله يوم درسه، فاجعل لك يومًا، هذا اليوم يوم علم، وهكذا، تجعل لك حزبًا.

فتنظيم الوقت وعدم قطع الدرس وجعْل حزبٍ لك في العلم حفظًا ومراجعة وقراءة وتلاوة لكلام الله عَزَّوَجَلَّ ومدارسة، كل هذه الأمور - بأمر الله عَزَّوَجَلَّ - إضافة للاعتياد على العلم من الصغر، فإن هذه من الأمور - بأمر الله عَزَّوَجَلَّ - التي تكون سببًا في دفع هذا العائق.

۞ العائق الثاني من العوائق التي تكون مانعة من تحصيل العلم: المال، ولا أقول قِلَّة المال كما لا أقول كثرة المال، فإن قِلَّة المال أحيانًا تكون عائقًا، فلا يستطيع المرء أن يشتري كتابًا، ولا أن يرتحل في علمٍ، ولا أن يذهب لدرسٍ، وإنما ينشغل بتحصيل ماله.

كما أن وفرة المال قد تكون أيضًا عائقًا، ونحن نعلم قصة المناظرة المشهورة التي كانت بين أبي الوليد الباجي وبين أبي محمد بن حزم، فقد كانا عالمين في زمانهما، وهذان العالمان تناظر فغلب أحدهما الآخر، فقال المغلوب: اعذرني، فقد كنت أقرأ العلم على

سُــرُج الحراس. **يعني:** أنني كنت فقيراً فأقرؤه على سُــرج الحراس، ما أجد لَمْبة ولا أجد نُوراً، فأقف في ظهر البيت فإذا مر حارسٌ ومعه ســراج قرأت صــفحة أو نصــف صــفحة، يقول: ما عندي مال، اعذرني كنت فقيراً.

فقال له الآخر - وهو ابن حزم -: اعذرني، فقد كنت أقرأ على سُرُجٍ من ذهب.

إذن: أحيانـًا قد يكون قِلَّة المال عائقـًا، وقد يكون كثرة المال عائقـًا كذلك، ولذلك رُوِّينا في الأثر: أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «إن من عبادي من لا يصــلح حاله إلا بالفقر، فلو أغنيته لطغى، وإن من عبادي من لا يصـــلح حاله إلا بالغنى، فلو أفقرته لفســـد حاله»، والحديث طبعـًا لا يصح، لكن قلت قبل قليل إنه رُوي في الأثر.

فالمقصود: أنه أحيانـًا كثرة المال وضِدُّه - وهو قلة المال - قد تكون كذلك، ولكن في الغالب كما ذكر ذلك بعض المؤرخين وهو صاحب كتاب «آثار الدول»: أن كثرة المال هي الســـبب التي تكون عائقـًا في طلب العلم. كثرة المال، ولذلك يقول: والغالب ممن يطلب الحديث ويُعنى بالفقه هم أبناء الفقراء، لأنه يريد أن يرتقي به، وأما المرء إذا كان عنده مال فإنه ربما ينشغل بهذا المال بمتاع الدنيا وغير ذلك فينشغل عنه.

وهذا هو رأي ابن حزم، فإن ابن حزم قال: أنا أصـــعب منك، طلبت العلم وأنا غني في سُرجٍ من ذهب.

فالمقصود من هذا: أن المال أحيانـًا قد يكون كذلك لأقوام، وقد يكون نقصه أو زيادته لآخرين مضرًّا.

والمرء يجب عليه أن يجعل العلمَ هدفه، وليعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعينه، فإن

كانت عنده قِلَّة في مال فليعلم أن العلم ليس له سبيل واحدٌ بالترحال أو بشراء هذا الكتاب، بل له وسائل أخرى، فالكتاب قد يُعار، والكتاب قد يُنظر إليه في مكان عام كالمكتبات العامة وغيرها، وبدل الشيخ شيخ آخر، والآن أصبح الشيخ يمكن أن يتواصل معه بهذه وسائل الاتصال الحديثة كالاتصالات وغيرها.

فبدائل وسائل العلم كثيرة، وليست مقصورة على شيءٍ محدَّدٍ بعينه دونه وما عداه، وهذا من خصائص هذا الدين بحمد الله عَزَّوَجَلَّ وتيسيره.

وضِدَّه، فالمرء إذا كان عنده وفرة من المال فليجعل أُنسه بالعلم، فإن المرء إذا أَنِس بالعلم وجد فيه لذَّة لا يجدها أصحاب الأموال في أموالهم، حتى جاء عن سفيان بن سعيد الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إننا في لذَّة - يقصد في العلم - لو علم عنها أبناء الأغنياء أو التجار لجالدونا عليها بالسيوف».

طبعًا التاجر مشغول بتجارته ويتلذذ بعمله، أما ابنه فإن المال عنده فائضٌ بين يديه ووقته فارغ يبحث عما يسعد به نفسه، يقول الثوري: «نحن في العلم في لذَّة لو علم عنها أبناء التجار لجالدونا عليها بالسيوف أو اشتروها منا بأغلى الأثمان».

فالمقصود من هذا: أن المرء يحرص على أن يأنس بالعلم، وأن يجد سروره وفرحه، وأن يَجِد نفسه في هذا الانشغال بهذا العلم، فمن كان كذلك فإنه لا يضرُّه لا ضيق ذات اليد ولا وفرة المال بين يديه، فإنها حينئذٍ لا تكون عوائق له.

۞ من العوائق - أيها الإخوة - في العلم، وهذا عائقٌ مهم جداً وهو قضية الاستعجال فيه:

كثيرٌ من الناس يستعجل في العلم، يقول: قرأت وقرأت ولكني لم أصِل إلى ما أُريد، وحضرت كذلك واستمعت ولم أصِل إلى ما أُريد، وهذا خطير، فإن العلم لا يُنال بالاستعجال، وإنما يُنال بالمهلة، **ولذلك يقول محمد بن شهاب الزهري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العلم إن أخذته جملة) يعني: بسرعة (ذهب منك جملة، وإن أعطيته كُلَّك) يعني: كل عمرك وأنت تعطيه (وإن أعطيته كلك أعطاك بعضه)، العلم إن أخذته جملة ذهب منك جملة، وإن أعطيته كُلَّك أعطاك بعضه.

إذن: إياك والاستعجال في العلم، إذا صعبت عليك المسألة ثِق أنك ستعرفها بعد سنة أو بعد سنتين أو بعد ثلاث.

وأذكر أن أحد المشايخ وهو الآن عمره فوق السبعين قبل عشر سنوات قُرِئ عليه مسألة في أحد كتب الفقه، ووُجِد فيها كلام لأحدهم، قال: هذه المسألة من حين كنت طالباً في المعهد العلمي، يعني: قبل خمسين سنة وهي مشكلة عليه، ما حلَّ إشكاله إلا بعد نحواً من خمسين سنة، يعني كان في السبعينات كان طالباً في المعهد العلمي.

فلذلك أحياناً قد تستشكل المسألة وتستصعبها، إياك والاستعجال، الاستعجال لا في المسألة ولا في نيل العلم كله، ولذلك دائماً كان أهل العلم يؤدبون طلبة العلم على أنك لا تستعجل في العلم، إياك أن تتعلم لتنتصر ولكي تقف أمام الناس، ولكي يُشار لك بالبنان، وإن أُتيت حظاً من العلم فإياك أن تتكلم حتى تبلغ سِنًّا معيناً.

ولذلك نحن نعلم أن أهل العلم يؤكدون تأكيداً كلياً على أن المرء لا يدرِّس ولا يعلِّم ولا يشرح ولا ينتصب للتدريس حتى يبلغ أربعين من عمره.

الرامهرمزي في «المحدث الفاصــل» عقد بابـاً كاملاً: **(بابٌ لا يحدِّث المحدث حتى يبلغ أربعين)**.

وقد جاء أن عبد الله بن الحجاج كما نقل ذلك ابن الجوزي يقول: دخلت بغداد ســنة مائتين وثلاثة فســألت عن أحمد بن حنبل فقالوا: هو في بيته لا يحدِّث، جالس في البيت، قال: فذهبت إلى بلدٍ من الأمصـار ثم رجعت في الســنة القابلة سـنة مائتين وأربعة، فسـألت عن أحمد بن حنبـل فقـالوا: هـا هو جـالس يحدث في جامع المنصــور، وإذا حلقته أكبر الحِلَق.

قال ابن الجوزي بعد أن ذك قصــة عبد الله بن حجاج هذه: وفي هذه الســنة بلغ أحمد أربعين عامـاً - لأنه ولـد عـام أربع وســتين ومـائـة - وقـد كـان أهـل العلم لا يحدثون ولا يعلِّمون قبل الأربعين.

إذن: فمســألة أن الشــخص لا يســتعجل في العلم لا في تحصــيله ولا في فهمه ولا في التصــدر فيه هذه من أهم الأمور، ومن اســتعجل الشــيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه. وهذه قاعدة ســلوكية وقاعدة فقهية معـًا، ونعرف تطبيقاتها المشــهورة في الإرث وغيره كالقاتل وغيره.

فالمقصود من هذا: أن الاستعجال من أعظم العوائق، إياك إياك والاستعجال!

وكثير من الناس يقول: حضرت عند زيدٍ من الناس ولكني لم أستفد شيئًا، نقول: هذا من الاستعجال، أنت تظن أنك لم تستفد ولكنك في الحقيقة قد استفدت لكنك لا تستطيع أن تعرف استفادتك إلا بعد طول المكث وطول الجلوس.

ويقال: إن أحد المشـــايخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - توفي ســـنة (١٣٧٦) - كان قد صـــيته قد طار في الأمصـــار وفي البلدان، فجاءه رجلٌ من مكان بعيد ليحضـــر عنده، فلما حضـــر عنده يقول: حضرت درسه فإذا بدرسه كدرس غيره، يقرأ الكلام وبالكاد يكاد يعلِّق على هذه الشروح والمتون، يعلِّق تعليقًا يسيراً.

يقول: فجلســـت بعد أســـبوعين في آخر المســـجد وأنا أتفكر: كيف أني قد تركت بلدي وحضرت عند هذا الشيخ الذي ذاع صيته وربما وجدت في بلدي من العلماء من هم في مثل درجة هذا الرجل، بل ربما يفصِّلون أكثر من تفصيل هذا الرجل.

قال: وبينما أنا أفكِّر في حال نفســـي وما تركته من الولد والزوج والأهل والمال وغير ذلك، قال: جاء أحد الطلاب فسأل الشيخ سؤالاً فأجابه الشيخ إجابة أعلم أنه لا يمكن أن توجد عند كثير من مشـــايخه في البلدة أو القرية التي أنا فيها، فعلمت أن العلم لا يُنال باليوم ولا في اليومين، بل بطول المكث والمجالسة.

إذن: الاستعجال في العلم خطير، لا في تحصيله ولا في بذله ولا في التَّنصب في تدريسه، ولا في غير ذلك من الأمور التي أشرنا لبعضها قبل قليل.

والحقيقة أن من آفة زماننا: أنه أصـــبح يتكلم الصـــغير مع محضـــر الكبير، وهذه آفة عظيمة، وما أُتي الناس إلا من هذا الباب.

ولذلك من علامات قرب الساعة ودنوها: أن يتكلم الرويبضة، وهو الرجل الصغير أو الحقير في الأمر الكبير ومن أعظم أمور الدين شرع الله عَزَّوَجَلَّ فيتكلم فيه الصغير بمحضر ما دام هناك رجل أكبر منه (مكبور باللهجة الدارجة) يكون هناك مكبور في العلم وفي السِّـــن في

هذا الباب، فيجب عليه أن يسكت، وأن يَكِل الأمر إلى أهله.

إذن: الاستعجال هذه مسألة مهمة.

۞ من عوائق طلب العلم - وهو العائق الرابع - : ظَنُّ المرء أنه قد فاته وقت طلب العلم.

كثيرٌ من الناس يظن أن العلم إنما هو لهؤلاء الذين يكونون في أول سِني الشباب، وهذا الأمر غير صحيح، ولذلك تجده ينظر للشباب في صغر سِنِّهم وقد حفظ المرء منهم القرآن ولم يَصل بعدُ العاشرة، وحفظ من المتون والأحاديث الشيء الكثير، فيقول في نفسه: أنا لا يمكن أن أصِل لهذه المرحلة التي وصل لها ابن عشر سنين، ناهيك أن أتعداه، إذنْ فاتني قطار العلم، ففاتني العلم وأهله ولا يمكن أن أكون كذلك.

وهذا غير صحيح، العلم ليس مخصوصاً بالعلم فقط. هذا واحد. بل العلم يكون في الحفظ ويكون بالفهم، وليُعلم أن المرء في أول سِنِّ عمره يحفظ وفي آخر سِنِّ عمره يفهم أكثر، ولذلك لا يبقى من محفوظ المرء إلا ما حفظه في صغره، ويكون فهمه في كِبَره أدق من فهمه في صِغره، وهذا معروف ومُسلَّم ولا شك فيه.

ولذلك كان كثير من أهل العلم ما طلب العلم إلا على كِبَر، وفاق فيه شيئًا كبيراً.

يُقال: إن القفَّال - وهذا القفَّال من كبار فقهاء الشافعية، حتى إنه تُنسب له طريقة من طرق الشافعية وهي طريقة المراوزة هو وتلاميذه - كان رجلاً صانعًا يصنع الأقفال، وأنه ما بدأ يطلب العلم إلا بعدما بلغ أربعين، لما بلغ الأربعين اتجه لطلب العلم بعد ذلك، ومع ذلك فاق أهل زمانه، بل فاق كثيراً من الفقهاء وهم يُعدون عدًّا على أصابع اليد أو اليدين

من العلماء الذين في طبقته، ففاق مع أنه ما طلب العلم إلا على كِبَر، هذا الذي ربما يكون قد سبقك في طلب العلم قد.. و(قد) إذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل وقد تفيد التكثير.

هذا المرء الذي طلب العلم على صِغَر قد ينسى ما حفظ، وقد يتجه لغير العلم بعد ذلك، **إذن:** فلا تقِس نفسك بأحد، اجعل طلب العلم ديانة لله عَزَّوَجَلَّ وابتغاءً لما عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا تقل أنا صغير أو كبير، ولذلك ابتداء العلم ليس خاصًا بالصغار، بل قد يطلب المرء العلم على كِبَر ويفوق بما أدركه من العلم بعد ذلك كثيراً ممن سبقه في طلب العلم.

نعم، غالبًا وليس دائمًا أن غالب الذين يبرزون في العلم يكونون قد ابتدؤوا العلم من صغرهم، غالبًا ولا أقول دائمًا، الذين يبرزون بروزاً كُليًا، ونقلت لكم قبل قليل عن السيوطي ماذا قال: «إنه ليس من طلب العلم في صغره كمن طلبه في كبره»، إشارة في الرد على بعض الناس، ومع أن هذا الذي رد عليه هو من الأعلام المشهورين الذين لهم مكانتهم وقدرهم في العلم.

ابن حزم كذلك، يُقال: إن أبا محمد ابن حزم لم يطلب العلم صغيراً، وإنما طلبه كبيراً في العقد الثالث من عمره، دخل المسجد - يُقال ولا أدري عن صحة هذه القصة - فأراد أن يصلي فكان وقت نهي، فنُهي عنه، ثم دخل بعد ذلك فأراد أن يجلس فقيل له: قُم صلِّ، فكأنه قال: رأيت أن هذا عيب وأنا في هذا الكِبَر، أو أني في هذا السن لا أستطيع أن أعرف أوقات النهي من غيرها وطلب العلم بعد ذلك، فكان ابن حزم ملء السمع والبصر في كتبه

وآرائه وما أسنده وفي غير ذلك من المسالك العلمية.

إذن: فقصـدي من هذا أن المرء قد يأتيه الشـيطان وتأتيه دواخل النفس فتقول له: إنك قد بلغت من السن أربعين أو خمسين ولا يمكنك أن تتحصل من العلم شيئًا، نقول: ليس كذلك،

❐ **بل إن في طلبك العلم على كِبَر أموراً:**

❁ **الأمر الأول:** أنك تكون قد تحصلت على أجرٍ في عبادة، فإن العلم عبادة.

❁ **الأمر الثـاني:** أن المرء الـذي يطلـب العلم على كِبَر يُرجى لـه - والعلم عنـد الله عَزَّوَجَلَّ - إخلاص النية أكثر من غيره، لأنه لا يريد أن يترزق به، ولا يريد أن ينال به حظًّا من الدنيا، لا وظيفة ولا علواً ولا شـيئًا، ففي الغالـب أن من طلب العلم على كِبَر وقرأ القرآن على كِبَر وتعلَّمه على كِبَر خلاص، يعني أموره اسـتقرت، حياته وبنوه وهكذا اسـتقرت أموره، وإنما يكون طلبه صـادقًا، فتكون نيته أقرب للإخلاص والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ، والناس لا نصدر عليهم حكمًا كليًا، وإنما أقول: المظنة في ذلك.

ولذلك المرء لا يُحرم نفسـه من العلم، بل إنه ربما تعلمت هذا العلم فيكون سـببًا في دخولك الجنة، ويكون سـببًا في صـلاح بعض عباداتك التي كنت تفعلها على وجهٍ خطأ، وقد يكون له فوائد عظيمة في العلم التي نعرفها.

❁ **من عوائق العلم - وهو عائق عظيم جداً، وكان متقدماً، وأشـار له أهل العلم - : الاستكبار فيه،** ولذلك جاء عن مجاهد بن جبر - تلميذ ابن عباس- رضي الله عنه ورحمه الله ورحم الله- مجاهد بن جبر كذلك - أنه قال: (لا ينال العلم مستحٍ ولا مسـتكبر). روى

ذلك البخاري تعليقـًا.

المرء قد يستكبر في العلم، نعم، حقيقة هذه، قد يستكبر المرء في العلم، الاستكبار في العلم صور:

۞ حينما يرى المرء أنه قد دخل في مكان لا يتعلم فيه إلا من هو أصغر منه سِنًّا، أو من هو أقل منه وجاهة ووضعـًا اجتماعيـًا، أو من هو أقل منه مالاً فيجلس معهم، بل ربما تقدموا عليه لأنه دائمـًا في الدرس يتقدم الأميز ويتأخر من هو دونه في العلم، فيرى أن من هو دونه في أمور الدنيا أعلى منه في أمور العلم حينئذٍ تستنكف نفسه ولا ينال من العلم شيئًا، وهذا هو السبب في أن كثيراً من أبناء الأغنياء لا ينال العلم، لأنه يقول: أستطيع أن أجلس، بدل ما أجلس على الأرض وأتعب على ظهري، أستطيع أن أجلس في أحسن الأماكن.

تعرفون كيف أن أبناء بعض الخلفاء لما جاء بعض الرواة قال: تعال لي اروِ لي الحديث، قال: لا، لا أروي الحديث إلا في المسجد. أروي الحديث في المسجد، فتحضر مع الناس وإلا فلا أحدثك وحدك، لأن مثل هذا يستطيع أن يشتري من يأتي له.

ولذلك أنا قصدي الاستكبار في العلم خطير، وأول صور الاستكبار: الاستكبار في طلبه، إياك أن تستكبر في طلب العلم ظنـًا منك أن هذا العلم خاص بمن هو دونك في الوضع الاجتماعي أو المادي أو السِّن فإن هذا من أعظم الموانع في طلب العلم.

۞ الاستكبار في العلم: أيضـًا لا يناله من استكبر في بذله، لأن البذل العلم سببٌ في تحصيله، نحن نعلم أن الزكاة نماءٌ، وكل شيء يُزكَّى ينمو، «اللهم أعط منفقـًا خلفـًا»،

والعلم زكاته بتعليمه للناس، وما تكلم أحدٌ بعلم ولا علَّم أحداً إلا وقد زاد علمه، يزيد في العلم، العلم يزيد بالتكلم شــيء عجيب جداً، لابن القيم كلام طويل جداً تقريبـاً في نحو صـفحة ونصـف في قضـية أن من تكلم بالعلم زاد علمه، وكم من الأشياء التي تنغلق عليك ولا تستطيع حلَّها، فإذا تكلمت بها انحلَّت، حتى قال أبو نصر الفريابي الفيلسوف الإسلامي المعروف: «وأكثر ما تُســتخرج به الفِكَر كثرة الكلام». تكلم تكلم فإذا بها ينحل هذا الإشكال الذي عندك، سواء كان فقهيـاً أو أصوليـاً أو حديثيـاً أو غير ذلك، فأحيانـاً قد يكون كِبْر المرء في عدم تعليم الناس، بعض الناس يتكبر، أنا أعلم الصبيان؟ أنا أعلم قرآن؟ بعض الناس يقول: لا، أنا ما أعلِّم قرآن، أنا أدرِّس على كرســي مثل هذا الكرســي وألبس عباءة مثل هذه العباءة التي عندي، ثم إذا جاء الطِّيْب أول من يُعطى أنا، وإذا جاء الناس قبَّلوا رأسـي، لا لا أنا ما أعلم الصـبيان الذين لم يدرسـوا بعد. هذا من أعظم الأمور التي تجعل المرء لا يُبارك له في علمه.

آخَر يقول: ما أحضـر ولا أدرِّس إلا أن يحضـر عندي عدد كبير، اثنان ثلاثة لا لا، أُلغي الدرس أوفر لوقتي، ثِق أن علمك سـينقص، ولذلك كان المشـايخ - عليهم رحمة الله - يُلقون الدرس لا يحضره إلا واحد.

أحد مشـايخنا - عليه رحمة الله - الشيخ عبد الله بن جبرين جلس سنين عنده درس ما قطعه ليس فيه إلا طالب واحد، لا يحضــر عنده إلا واحد مدة ســنين مع أن درســاً له آخر يمتلئ، هذا الدرس لا يحضره إلا واحد استمر عليه، سنين من قبل ٩٨ هجرية.

إذن: من أعظم العوائق في عدم تحصيل العلم: الاستكبار فيه، (لا ينال العلم مستحٍ ولا

مستكبر).

۞ **والحياء أيضاً يعتبر عائقاً، فنتكلم عنه بسرعة، فإن من أعظم العوائق**: الحياء، والحياء لا يأتي إلا بخير ولا شك، ولكن الحياء هنا حياءٌ يمنع من المشروعات، يمنع من تحصيل المشروع، لكن الحياء في المباحات ممدوح، والحياء في ترك المباحات أو في ترك الممنوعات ممدوح، وأما الحياء في ترك الواجبات أو المشروعات فمذموم، ولذلك يقولون: «إن من علامة نجابة الغلام - يقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - حياؤه». إذا رأيت صبياً من أبنائك حَيِيًّا فاعلم أن هذا من علامة نجابته، لأن الحيي يمتنع من أن يذهب في مواطن الرِّيب، يترك مواطن الرِّيب ويترك ما فيه يعني ما يُظن به الظن السيء، والحياء من أعظم الحواجز.

ولذلك لما سمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، رجلاً يعظ أخاه في الحياء يقول: يا أخي - معذرة للغة العامية، لكن كأنه يقول له - حياؤك كثير وشديد فاترك الحياء، فسمع رجلاً يعظ أخاه في الحياء فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «دعه» اتركه، دعه على حيائه، «فإن الحياء لا يأتي إلا بخير».

إذن: الحياء خير إذا كان حياءً يمنع من ترك محرمٍ أو مكروه أو من ترك مباح فإنه خير، حتى في ترك المباح، إنما يكون الحياء مذموماً إذا كان في ترك واجب أو مشروع، ولذلك لا ينال العلم مستحٍ، ولذلك يقولون: إن هذا الحياء هو من الخجل المذموم ولا يسمى حياءً، ولكن لا مشاحة في الاصطلاح.

إذن: هذه بعض العوائق.

۞ الحقيقة العوائق كثيرة جداً، لكن أختم أيضـاً بآخر عائق وأقف عنده، وهو: استصعاب العلم.

كثير من المسائل تُستصعب، ويجد المرء فيها صعوبة، **وهذه الصعوبة تأتي من جهات:**

❀ الجهة الأولى: تأتي من فهم اللغة، كثير من الناس يقرأ المسألة فيستغرب ويستصعب فهمها، كثير من الأبواب – خلّنا نقول الفقه على سبيل المثال – تقرأ ما تفهم شيئًا، لا تفهم شيئًا البتَّة، تقرأ سطرين، ثلاثة أسطر لا تفهم شيئًا، والسبب طبعًا أن الفقه بالخصوص يحتاج إلى تدرج، فالشخص قد ينتقل لأعلى الدرجات وهو لم يعرف أوَّلها، فحينئذٍ لا يفهم هذا الكلام، حينما يقرأ هذا الكلام يقول: هاه هاه، لم أفهم فيترك.

كانوا قديمًا في كلية الشريعة عندنا في السنة الأولى يدرسون المقدمة المنطقية، سئل المشايخ: لماذا تجعلون في السنة الأولى المقدمة المنطقية؟ – لأن الشريعة يتقدم لها كُثُر، لأن فيها القضاء وكتابة العدل وغير ذلك – فقالوا: لكي يكون الطالب الضعيف في السنة الأولى إذا أتته المقدمة المنطقية استصعب الكلية فتركها، فلا يبقى في الكلية إلا القوي. كذا يقول المشايخ قديمًا، طبعًا نُقِلت المقدمة للمستوى الثالث أو الثاني.

فأحيانًا الفقهاء يتعمدون – ذكر الفاروقي في بعض كتاباته – كذا يقول هو، أنا ذكرت اسمه لأن العهدة عليه – قال: إن الفقهاء يتعمدون تصعيب المختصرات لكي لا يلِج هذا العلم إلا صادقٌ في طلبه ولا يتحقق له الفقه إلا من هو جادٌّ في تحصيله.

إذن: أحيانًا الفقهاء قد يكون من أغراضهم تصعيب العلم في بعض المسائل لكي ينظروا الذي أمامهم أهو جادٌّ أم ليس بجاد، أهو فاهم أم ليس بفاهم.

ولذلك استصعاب العلم من العوائق، وكيف يكون المرء ينحل عنده هذا الإشكال؟ ينحل هذا الإشكال بالتدرج في العلم وبسؤال أهل العلم والأخذ عن الأشياخ، وبقناعة المرء أن ما لم يعلمه اليوم سيعلمه غداً أو بعد سنة أو بعد سنتين أو بعد عشر، ولذلك كثيراً ما تسمع في كتب التراجم يقول: هذه المسألة ما زلت متحيراً بها من عشر سنوات. عشر سنوات وهو متحير بها! إذن: دل على أن العلم لا يُحل في يوم وليلة، لا يُصب صَّباً في فِي المرء، وإنما هو يكون عملية تراكمية في ذهنه ثم بعد ذلك ينحل عنده الاستشكال.

إذن: أول شيء في قضية الصعوبة تكون في اللغة، في لغة ماذا؟ في لغة الفقه، ويكون حلُّها:

- بالدُّرْبة على كتب الفقهاء.
- التدرج في طلب العلم.
- مجالسة أهل العلم وسؤاله واستخبارهم والاستفسار منهم.
- أيضاً: معرفة المصطلحات، فإن معرفة مصطلحات كل فنٍّ تسهِّل معرفة اللغة، طبعاً هناك العناية باللغة العربية، والحديث فيها طويل.

صعوبة الفقه أو صعوبة العلوم عموماً أو استصعاب العلم أحياناً يكون بكثرته، بعض الناس يرى أنه ربما يجلس العمر كله ولا يستطيع أن يُحيط بهذا العلم، وصدَق، العلم لا يُحاط به، لا يمكن أن يُحاط به.

في البخاري أن الخضر عليه السلام قال لموسى حينما كانوا على طرف السفينة فجاء عصفور فنقر في البحر، شرب شربة من البحر ربما كان نهر النيل أو غيره، فقال: ما نقص

علمي وعلمك من علم الله عَزَّوَجَلَّ إلا كما نقص هذا العصفور من البحر.

العلم كثير جداً جداً جداً، ولا يمكن لامرئ أن يحيط به إلا أن يكون نبيـاً كما قال الشافعي.

فالمقصـــود من هذا: أن تعلم أن العلم إحاطتك بجميعه معجوزٌ عنه، ولكن الفقهاء بسَّطوا العلم، والعلماء جميعـاً في كل الفنون بسَّطوه فجعلوا العلم درجات، فبعضه قليل إذا أحطت بجميع الأبواب انتقلت لما بعده، وهكذا.

إذن: امشِ على طريقة أهل العلم في التدريج فحينئذٍ ينحلُّ الاستصعاب في كثرة العلم، ولتعلم أن العلم لا يمكن أن تحيط به كله، **ونحن نعلم أن العلم نوعان:**

- علم بالفعل.
- وعلم بالقوة.

والعلم بالفعل هو الذي يكون في صدر المرء.

وليس علمـاً ما حوى القمطر وإنما العلم ما وعاه الصدر

والعلم بالقوة نوعان:

- علمٌ بالقوة القريبة.
- وبالقوة البعيدة.

وذلك عن طريق البحث والقراءة والمدارســة والســؤال ومعرفة مظان المســائل، والإنســان في أغلب علومه إنما هو بالقوة وليس بالفعل، أغلب العلوم إنما هو بالقوة ليس بالفعل، وخاصـة في زماننا هذا، أغلب الناس تأتيه المسـألة يعطيك ربعها وثلاثة أرباع يقول

لك: انتظر قليلاً ثم يستخرج لك المسألة من مظانها لأنه تدرب على الكتب وغير ذلك.

إذن: جزء كبير هو بالقوة وليس بالفعل.

بذلك أشرنا إلى بعض عوائق طلب العلم، ولعل فيما ذكرت الكفاية.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ للجميع التوفيق والسداد، وأسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يتولانا بهداه، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، وأسأله جَلَّوَعَلَا أن يرحم ضعفنا، وأن يجبر كسرنا، وأسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يغفر لوالدينا وأن يرحمهما وأن يشفي مريضهما، وأن يغفر لميتهما، وأسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يصلح لنا في نياتنا وذرياتنا وولاة أمرنا، وأسأله جَلَّوَعَلَا أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وأن يولِّي على المسلمين خيارهم، وأن يكفيهم شرَّ شرارهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.